Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

المعتزلة بين الفكر والعمل

تأليف

علي الشابي أبو لبابة حسين

عبد المجيد النجار

الشركة التونسية للتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

© S.T.D. - SOCIETE TUNISIENNE DE DIFFUSION
5, AVENUE DE CARTHAGE - TUNIS 1979

بسم الله الرحمـــن الرحيـــم

تقـــــديـم

تزداد الحاجة لدراسة الفرق والمذاهب الإسلامية يوما بعد يوم لا بهدف العرض التاريخي وسَرْدِ الوقائع والأفكار، وهو أمر لم يَعُدْ يرضي، اليوم، المختصين، وإنما بقصد الوقوف على بنية المجتمع الإسلامي المعاصر، وما يكمن فيها من حقائق وآراء تستمدّ فعاليتها من ماضي هذا المجتمع وطبيعته الأدوار والأوضاع الفكرية التي تعاقبت عليه.

وقد اعتاد أغلب الدارسين لهذه الفرق والمذاهب الاعتماد على المنهج التاريخي في معرفة آرائها بمعزل عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية، تلك التي كانت بحكم الالتحام الذي جاء به الإسلام بين الدّين والدنيا المحرّك الأصلي لهذه الاراء، فجاءت تلك الدراسات بالإضافة إلى ابتسارها متقطّعة، دَأَبَتْ على فصل كلّ مذهب اعتقادي أو فقهيّ عن الآخر حتى لكأنّ هذه المذاهب في ضوء تلك النظرة لم تكن متآلفة قطّ في إثراء الفكر الإسلامي وتزكية مسيرته وصياغة ماضيه، بينما العكس هو الصحيح إذ يتجلّى كل ذلك في حاضره من حيث طبيعة مواجهته للأحداث ونزوعه إلى أهداف تنسجم مع تكوينه الذي أدركه عبر قرون.

وقد لعب الفكر الاعتزالي دورا هامّاً في صياغة الفكر الإسلامي وفي التأثير في المجتمع منذ أواخر القرن الأوّل الهجري، ولم ينفكّ هذا التأثير بإيجابياته وسلبياته يقوى إلى أن بلغ الأوج في القرن الثالث الهجري، وعبْر رحلته تلك استطاع تأصيل مبدإ الحرّية بجانبيْها الميتافيزيقي والاجتماعي ومنافحة الديانات والمذاهب الشرقية السائدة بالعقل والحجاج وذلك عن طريق التعمق في فهم هذه الديانات والمذاهب والتضلّع في العلوم والمعارف التي كانت ذائعة في تلك الرقعة من فارسية وهندية ويونانية ومسيحية ويهودية، وأشدّ ما يطبع المنهج الذي أصّلوه لفهم أسرار العقيدة الإسلامية وإلزام الخصوم نزعةٌ عقلية متجلية، وبرغم أن الحاحهم انتهى بهم إلى محظور دينيّ وهو تقديم العقل على النصّ إذا ما بدا اختلاف بينهما فإنهم أفادوا في إثراء حضارة الإسلام بتزكية الأنظار العقلية وفي الانفتاح الثقافي الذي عرفه المسلمون، فجدّت حركة فكرية نشيطة اعتمدت الشرع والعقل اعتمادا

اختلفت درجته من فرقة كلامية إلى أخرى، واستوعبت التراث العالمي وأضافت إليه ، وحين أخذ الحضور السياسي للمعتزلة في التقلّص لم يخفت نفوذهم العقلي في المجتمع الإسلاميّ، فقد انضاف إلى تأثّر الخوارج والشيعة على الرغم من اختلافهم ببعض أصول الاعتزال، اعتمادُ أهل السّنة لمنهجهم العقليّ وتسلّحهم بالمنطق والفلسفة ، فأقام الأشعري والماتريدي مذهبيْهما العقديين على العقل والنقل لكنهما لم يقعا في المحظور الذي وقع فيه المعتزلة وهو ترجيح العقل على النص ، وكان كلف أهل السّنة بالردّ على المعتزلة سببا آخر في أخذهم باراء المعتزلة من غير قصد لأنّ إلحاف الخصم في الرّد على خصمه ومقارعته طالما ينتهيان به إلى التأثر بآرائه، وكذلك كان المعتزلة من قبلهم أمعنوا في الردّ على المجوسية وبخاصّة المانوية منها ، فوقعوا في ضرب من الثّنائية في تقريرهم لأصل العدل الالهي إلى حدّ يبدو فيه التناظر تامّا بين رأي النّظام ورأي المانوية في خالق الشرور .

إن حلقات الفكر الاسلامي موصولة ، والتفاعل بين الآراء السائدة في المجتمع برغم اختلاف القائلين بها أمر لا يتطرق إليه الشك ، وهذا ما حدا بي صحبة الزميلين الأستاذين عبد المجيد النجار وبولبابة حسين إلى تأليف هذا الكتاب ، وذلك إيمانا منا بأن التغلغل في فهم بنية المجتمع الإسلامي المعاصر والوقوف على أسراره وطبيعة اتجاهاته واختياراته لا يتحققان إلا بمعرفة كوامنه وإدراك صيغه الفكرية ، تلك التي تبدو لغير الممعن معزولة تماما عن حاضره، وهي صيغ كفيلة بالقضاء على الفواصل المذهبية إذا ما جد المختصون المخلصون في ضبط إطار موحد يقضي على الشقة المفتعلة التي طالما استغلها المغرضون.

تتناول فصول هذا الكتاب نشأة المعتزلة وعواملها وموقفهم من العقل والعمل والحرية الإنسانية ومن الحديث الشريف ، وبإمكان القارىء أن يلمس آثار المعتزلة في واقعنا الإسلامي المعاصر من خلال ما ورد في هذا الكتاب من آراء اعتزالية سواء منها ما كان إيجابيا أو سلبيا .

نرجو الله أن يوفقنا ويكلأنا برعايته وعونه ، إنه هو السميع المجيب.

د . علي الشابي

واقعية المعتزلة

1 - أثر الواقع الإسلامي في القرن الأول في نشوء الفكر الاعتزالي

2 - منزلة العمل في تفكير المعتزلة وسلوكهم

1- أثر الواقع الإسلامي
في القرن الأول في نشوء الفكر الاعتزالي

مقدمة: (الفرق الاسلامية وواقع المسلمين) .

لو تأملنا الفرق الإسلامية في مبدإ نشوئها ، وفي طبيعة آرائها ومناهجها ، مقارنين ذلك بالظروف التي نشأت فيها ، والأحوال التي واكبت تطوراتها ، لوجدناها تمثل على اختلافها محاولات لحلّ مشاكل تجدّ في حياة المجتمع الإسلامي العمليّة والفكرية ، سواءٌ كانت نابعة من داخل ذلك المجتمع ، أو طارئة عليه من الخارج ، وإن كانت تلك المحاولات مختلفة في مدى عمقها وإخلاصها ونجاعتها، إلاّ أنّها تلتقي جميعا عند معنى التقويم والإصلاح ، وهو ما يفسّر رجوع جميع الفرق إلى القرآن الكريم وجعله أصلا يصلح عليه الواقع سواء كان ذلك الرجوع مخطئا أو مصيبا في حقيقة الأمر .

وربما يكون هذا المعنى ناشئا بالأخص عن خاصيتين من خصائص التعاليم الإسلامية هما : حرية الفكر ، والواقعية في النظر .

فالتعاليم الإسلامية سمحت لكل مسلم بأن ينظر في الدين إذا ما توفرت فيه النزاهة والكفاءة الذاتية ، وأن يعلن نتيجة نظره ذلك بكل حرية ، وليس لأي جهة أو طبقة أن تحتكر هذا الحق في النظر الديني ، كما تحتكره طبقة الكهنة في ديانات أخرى ؛ وعلى هذا المعنى ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، حيث كان ينمي فيهم الفكر الحر ، وينشئهم ذوات لها استقلالها حيث يعطي لكل واحد امتداده الطبيعي في نطاق الإيمان فتكون له شخصية قوية متميزة ، ولا أدل على ذلك من أنه كان يسمح لهم بمخالفته الرأي في بعض الأحداث رغم مقامه النبوي بينهم (1). وقد تربى الصحابة

---

1) مثل اعتراض عمر على فداء أسرى بدر ، واعتراض ذي الخويصرة التميمي على طريقة قسمة الرسول للغنائم.

رضي الله عنهم على هذه الاستقلالية فكانوا أشخاصا متمايزين في الفكر متكاملين ، ولم يكونوا نسخا متطابقة ، وأصبحت هذه التربية فيما بعد روحا سارية في الأمة الإسلامية.

كما أن التعاليم الإسلامية احتفلت بالجانب الواقعي من الحياة في مختلف مظاهرها ، ووجهت النظر إليه ، وجعلته المنطلق الضروري لكل تعقل يستهدف الوصول إلى الحقيقة مهما كانت موغلة في التجريد ، ولا أدل على ذلك من تلك الآيات الكثيرة التي توجه الفكر إلى النظر في واقع الكون وآياته ، وواقع الحياة الإنسانية وتقلباتها للوصول إلى الإيمان بالوجود الالهي ، وما يستلزمه من صفات الكمال ، وبهذا التعليم القرآني تربت العقلية الإسلامية على إحساس متزايد بالواقع المعاش بحيث تنطلق من ظروفه ومستجداته لبناء تصوراتها وأفهامها لمختلف القضايا التصورية والسلوكية.

بهذا المعنى من الاعتبار للواقع الجاري ، ومن الشعور بالحرية في التفكير والإصداع بالآراء نشأت الفرق تعبيرا عن وجهات نظر في إصلاح واقع إسلامي طرأ عليه فساد وانحراف في جانب من جوانبه (2) ولذلك فإن الارتباط متين بين آراء كل فرقة ومنهجها، وبين الواقع الفكري والسلوكي للظروف الذي نشأت فيه مكانا وزمانا ، وهو ما يؤكد تأكيدا ضرورة أن تدرس بعمق الظروف التي نشأت فيها كل فرقة وتطورت من جميع جهاتها ، فإن في ذلك مفتاحا لفهم آراء الفرق واتجاهاتها ومناهجها.

إن الخوارج في مطالبتهم بتطبيق المثل الإسلامية تطبيقا يبلغ الكمال وما اصطبغ به مبدؤهم هذا من الصلابة والحدة الفائقين نظريا كما يبدو في تكفيرهم لمرتكب الكبيرة ، وعمليا كما يبدو في اتخاذهم الثورة المسلحة على كل مخالف طريقة مفضلة للتغيير، إن ذلك ليس إلا وليدا للاضطراب الذي وقع في الحياة الإسلامية منذ أواخر عهد عثمان رضي الله عنه ، فقد وقر في بعض النفوس أن ما آل إليه أمر الخلافة ، وما انتهى إليه أمر الجماعة الإسلامية من تفرق إلى فريقين متعارضين متحاربين ، لم يكن

2) بحسب ما تراه الفرق ، لا بحسب واقع الأمر.

لسبب من أسباب الدين بل لأسباب الدنيا من حكم ومغانم وتطلع إلى مراكز السياسة والسيطرة ، وقد ترسب هذا الشعور شيئا فشيئا لينفجر مشكلا تلك الآراء التي اتخذها الخوارج مستغلين حادثة التحكيم مناسبة لاعلانها والخروج بها (3).

والشيعة فيما ذهبوا إليه من أمر الوصية ، والعصمة ، والمهدية والرجعة لا يبعد أن يكون ناشئا عن الصعوبات والمشاكل التي أرهقت المسلمين بسبب قضية الخلافة ، وما جرته من الفتن والمآسي التي كانوا هم من أول من اكتوى بها في مقاتل زعمائهم المروعة ، فأحدث ذلك في نفوسهم يأسا من أن ينصلح الواقع بالطريقة التي يسير عليها ، فأحدثوا آراءهم تلك وطرحوها حلا يمكن أن يصلح حياة المسلمين ويجنبها الفساد التي هي فيه.

والأشعرية فيما سلكته من الجمع بين النقل والعقل تدعيما للأول بالثاني ، لم تكن إلا نتيجة لذلك التنافر الشديد بين اتجاه يسلك مسلك العقل في شيء من المبالغة أحيانا وعلى رأسه المعتزلة ، واتجاه يسلك مسلك النقل في شيء من المبالغة أيضا وعلى رأسه الحنابلة ، وهو تنافر سمح أحيانا بدخول عناصر غير مخلصة محدثة في الدين أشياء منافية للمنقول ذات صبغة عقلية ، مستغلة اعتداد العقليين بالعقل من جهة ، وقصور النقليين عن المواجهة العقلية الفلسفية من جهة أخرى ، فلما جاء الأشعري (ت 324) « مثل عصره تمام التمثيل ، كان مسار الفكر عند منحنى خطير : من الاستقطاب إلى الاعتدال ، إلى مذهب معبر عن الحل الوسط بين العقل والنقل وقد تبلور في نفسه هذا المنحنى الخطير بتحوله العنيف من الاعتزال إلى مذهب معبر عن الحل الوسط بين العقل والنقل » (4).

وبهذا المعنى نفسه من التناسب بين الواقع المعين للحياة الإسلامية وبين الفرقة الناشئة فيه، كان ظهور المعتزلة في طبيعة أفكارها ومناهجها التي

3) عبد الرحمان بدوي – مقدمة ترجمته لكتاب « الخوارج والشيعة » ليوليوس فلها وزن : هـ، و (ط النهضة المصرية 1958).

4) أحمد محمود صبحي – في علم الكلام : 433 (ط 2 دار الكتب الجامعية الاسكندرية (1976)